علاقة الأدب العربي بالأدب السوفييتي في القوقاز

للأستاذ شاكر الدبس

منذ سنتين ونيف بتقريباً قامت في الاتحاد السوفييتي حملة أدبية الغاية منها العود إلى المنشأ الصحيح للأدب والفن اللذين تمتاز بهما شعوب هذا الاتحاد. وهذا بحسب رأيهم لا يعني أنهم يرفضون قبول أي أدب صحيح يأتيهم من الخارج، وإنما يريدون أن يثبتوا للملأ أن ما ينسبونه في أدبهم إلى أدب أمم أخرى هو في الواقع غير صحيح. وعلى هذا الأساس نشرت المجلة الأدبية السوفياتية (ليترانورنايا جازيتا) في عددها الصادر في ١٣ يناير لسنة ١٩٤٩ مقالا مطولا باللغة الروسية للأستاذ كليموفتش في موضوع «المهمة الأدبية اليومية الضاغطة» عالج فيه هذا الموضوع معالجة دقيقة تخلص منها إلى نفي القول بأن الأدب في الجمهوريات السوفياتية في القوقاز يرجع إلى الأدب العربي. وقد آثرت نقل خلاصة عن هذا المقال لخطورته، لما له من العلاقة المباشرة بنا

بعدما يتكلم كليموفتش عن مكانة الأدب في حياة الشعوب السوفييتية، وعن الاهتمام بجعله يتفق مع «التاريخ الأدبي الخطير الذي امتازت به روسيا»، يعود فيلقي تبعة كبرى على الأدباء في ضرورة تحري الحقائق في تاريخ الأدب في الشرق السوفياتي. ومن ثم يبدأ بحث هذا الأدب وعلاقته بالأدب العربي فيقول بأنه يعتقد بوجود علاقة بين الأدب في هذه الجمهوريات وبينه في تركيا وإيران والعالم العربي؛ ولكنه في نفس الوقت ينكر كل الإنكار ما يذهب إليه بعض الأدباء بأن منشأ الأدب في هذه الجمهوريات السوفياتية هو الأدب التركي والإيراني (الفارسي) والعربي. ولكي يضع النقط على الحروف ويفهم شعوب الجمهوريات السوفياتية الشرقية ما هي علاقة أدبهم بالأدب العربي يقول:

«إن العرب عندما تخطوا حدود جزيرتهم العربية في القرن السابع الميلادي، وتغلبوا على بلدان أخرى، ألفوا منها إمبراطوريتهم الأقطاعية التي عرفت باسم الخلافة، وهدوا شعوبها إلى الإسلام، عملوا على نشر لغتهم كلغة رسمية، على أساس أن القرآن قد أنزل بها، وأنها لغة الله نفسه، وأن ترجمة القرآن إلى لغات هذه الأمم كان في نظرهم تجديفا. أما من ناحية مستوى العرب الثقافي فقد كانوا أقل حضارة وثقافة من الكثير من الشعوب التي تغلبوا عليها. ولكي يحافظ العرب على سيادتهم عملوا على التخلص من تراث الأمم الأخرى الأدبي والفني. فبإمكاننا أن نقول إن هذه الطريقة التي استخدمها العرب لترسيخ قدم أدبهم وثقافتهم في البلدان التي تغلبوا عليها قد كانت السبب الرئيسي المباشر في فقد هذه البلدان تراثها الأدبي الذي كان لها قبل الفتح العربي. وعلى الرغم من نضال هذه الأمم للإبقاء على أدبها وثقافتها فقد اضطرت إلى استعمال اللغة العربية، هذه اللغة التي فرض العرب استعمالها فرضا في إمبراطوريتهم المترامية الأطراف، التي امتدت من الصين والهند شرقا إلى مراكش والأندلس غربا. وما يسمى بالأدب العربي والعلوم العربية والثقافة العربية فقد أنشأها على الغالب غير العرب، أي الأمم التي تغلب عليها العرب وحكموها»

وقد استشهد كليموفتش في مقاله هذا بالأستاذ روزين، أستاذ اللغات الشرقية في بطرسبرج (ليننغراد) في سنة ١٨٧٢ الذي قال: «إن العرب مدينون في أدبهم وعلومهم إلى الفرس والسريان. غير أنه لما كان هذا الأدب وهذه العلوم قد دونت باللغة العربية فقد عزى الفخر في هذا الجهد العلمي والأدبي والثقافي إلى العرب يوم كانت أوربا غارقة في ديجور حالك من الجهل»

واستشهد أيضا بما قاله كراتشوفسكي في سنة ١٩١٩، إذ قال: «إن القول بأن الأدب العربي هو من صنع الأمة العربية إنما هو خطأ فادح، ذلك لأن الفضل في وجود هذا الأدب يرجع إلى غير العرب (الأعاجم) الذين دوانوا أدبهم باللغة العربية، وحتى إلى اليهود والسريان والأسبان والأتراك والأقباط والبربر الذين اشتركوا في إيجاده» (راجع كتاب الأدب في الشرق لمؤلفه كراتشكوفسكي ١٩١٩)

ثم يعود فيقول : « ومن المعروف الآن أن العرب — بما حصلوا عليه من فخار نسب إليهم فى حقلى الأدب والعلم — مدينون إلى الكثيرين من مواطنينا؛ كالأدباء الذائعى الصيت فى أذربيجان وآسيا الوسطى ، ومنهم الفارابى وابن سينا والخوارزمى والبيرونى وسواهم . ومما هو جدير بالذكر أنه قد ثبت لمجمعى العلوم فى أذربيجان وأوزبكيان أثناء تحريهما العلمى عن منشإ الأدب فى بلاديهما ، أنه ليس من أصل عربى بل من أصل أذربيجانى وأوزبكيانى كان قائما فى البلدين قبل الفتح العربى . وقد بحث المجمع العلمى فى جمهورية يوزك السوفياتية منشأ العلم والفلسفة العربيين فتوصل بنتيجة ذلك إلى الحقيقة التالية وهى : « أن الاصطلاح المعروف « بالفلسفة العربية » ليس صحيحاً ، ذلك لأنه قد اشترك فى إيجاد هذه الفلسفة مدارس فلسفية متعددة ضمت أعضاء ليس من العرب فحسب ؛ بل أيضا من شعوب الشرق الإسلامى . ومع هذا فإن عددا من العلماء قد تجاهلوا هذه الحقيقة وعزوا هذه الفلسفة إلى أصل عربى »

ويستأنف الأستاذ كليموفتش مقاله بقوله : « إن وحدة اللغة فى بلد ما لا تعنى وحدة الأدب فيها ». واستشهد على صحة نظريته هذه بأن أعطى مثلا على ذلك وحدة اللغة بين إنكلترا والولايات المتحدة الأميركية فى حين أن لكل من هذين البلدين أدبه الخاص به . وأعطى مثلا آخر على ذلك بلدان غربى أوربا التى كتبت فى العصور الوسطى باللغة اللاتينية ، وفى نفس الوقت لم يكن منشأ الأدب فيها لاتينيا . ثم استشهد بكتابات أدبية أخرى تعرف باليوتوبية (الخيالية) كتبها الكاتب الإنكليزى (توماس مور) باللغة اللاتينية ، ومع هذا لم تخرج عن كونها أدباً إنكليزيا صرفا

وعلى هذا الأساس قال كليموفتش : « إذا ما عثرنا على قطعة أدبية أو فنية أو فلسفية وأردنا أن نعرف ما إذا كان منشؤها عربيا أو فارسيا أو من أى أصل آخر فيجب علينا والحالة هذه أن نتحقق أولا عن كاتب هذه القطعة ، وأين كتبها ، وما هى مضامينها الفكرية ، وما هى صبغتها الوطنية . مثال ذلك إذا أردنا تحليل قطعة أدبية كتبت باللغة العربية لنعرف منشأها نجد أن قسما غير قليل منها — على الرغم من كتابته باللغة العربية — يتضمن ميولا معادية للعرب من قبل الشعوب التى تغلب عليها العرب . ونجد فى غالب الأحيان أن كاتبى هذه القطع الأدبية يعبرون بوضوح عن افتخارهم بكونهم ليسوا من أصل عربى . ومن هؤلاء الكتاب شاعر أذربيجان إسماعيل بن يسار الذى تنازع مع الخليفة هشام ونفى على أثر ذلك إلى الحجاز فى بلاد العرب » إلى أن يقول أيضا : « وهنالك أيضا أدباء غير عرب استولى العرب على بلدانهم ترجموا أدبهم الخاص إلى اللغة العربية ، ليس بقصد اغناء الأدب العربى ، وإنما بقصد إعطاء العرب فكرة صحيحة عن أدبهم ، وفى نفس الوقت لينافسوا به الأدب العربى . ومن هؤلاء عبد الله بن المقفع الذى ترجم كتاب كليلة ودمنة إلى اللغة العربية ، وقد قتله الخليفة فى بغداد لدعايته المعادية للعرب »

ومن ثم يتخلص صاحب المقال إلى النتيجة التالية ، وهى قوله : « إن ما كتبه الفارابى وابن سينا والخوارزمى والبيرونى وسواهم لا يمكن اعتباره أدبا عربيا صرفا . أما إذا أردنا أن نقول عنه إنه أدب عربى فيكون تحليلنا له والحالة هذه تحليلا ذا جانب واحد . وأكثر خطأ من هذا أن نقول إن ما كتبه السوفييت الشرقيون باللغة العربية هو أدب عربى لمجرد أنهم كتبوه باللغة العربية — هذه اللغة الغريبة عنهم — لأنهم لم تكن لديهم لغة مكتوبة خاصة بهم . ومن هؤلاء شعوب شمالى القوقاز الذين دونوا أدبهم باللغة العربية منذ القرن السابع عشر حتى ثورة اكتوبر الكبرى فى سنة ١٩١٧ . غير أن هذا لا يعنى مطلقا أنه أدب عربى ، لأنهم منذ أن فسح المجال أمامهم ، برعاية الحكومة السوفياتية ، لتصبح لديهم لغة مكتوبة بعد الثورة ، رفضوا أن يكتبوا شيئا باللغة العربية . ومن جهة ثانية لم يكن بإمكان شعوب شمالى القوقاز اعتبار القاهرة ودمشق وبغداد وسواها من عواصم الأدب العربى عواصم حقيقية لهذا الأدب ، لأن هذه الأماكن كانت قبلا ولايات فى السلطنة العثمانية ، ومن ثم مستعمرات (هكذا) إنكليزية وفرنسية . وفضلا عن هذا فإن شمالى القوقاز كان قسما من روسيا وقد دخلت شعوبه فى نطاق الثقافة التقدمية وتأثيرها النافع ، هذه الثقافة التى ينعم بها الشعب الروسى العظيم »

شاعر مجهول

للأستاذ حسني كنعان

لقيني بالأمس القريب صديق فاضل من أسرة الجندي الدمشقية فقال لي فيما قال :

— لقد أنكرت فضل الرجل وما عرفت له حقه . قلت :

— أي رجل تعني . . ؟ قال :

— أعني حميد أسرتنا وشاعر سورية المجلي « الشيخ أمين الجندي » . . إن جميع ما ذكرته من موشحات وقدود وأشعار في فصل إسق العطاش الذي نشرته في الرسالة الغراء منذ أمد عي من نظمه ، فقطعة يا غزالي كيف عني أبعدوك ، وتيمتني هيفتني عن سواها شغلتني ، واسق العطاش تكرماً . . هي من نظمه . .

فلماذا لا تطلعني على مقالك قبل نشره في الرسالة ليكون بحثك كاملا من كل جهاته . . ؟ قلت :

— كيف أستطيع أن أتأكد من ذلك . . ؟ قال :

— أنا أطلعك على ديوان له مطبوع قد حوى في طياته هذه اللطائف والرقائق . . وكنت أسمع عن هذا الشاعر الشيء الكثير ولكني مع الأسف الشديد لم أقع على ديوانه . فألفيتها فرصة سانحة أن يعرض على أحدهم هذا العرض الذي وافق هوى في نفسي التواقة إليه ، وذلك أملا في أن أنصف الرجل . . مضت مدة من الزمن دون أن يفي هذا الصديق بوعده ، فذكرت ذلك لصديق آخر من أفراد هذه الأسرة وهو المحامي السيد « تاج الدين » الجندي نجل العلامة الشيخ سليم الجندي أستاذ الطنطاوي ، والأفغاني ، والجيرودي ، والعطار ، وصاحب محاضرة المعري التي أعجبت الأستاذين الجليلين معالي طه حسين باشا وصاحب العزة أحمد أمين بك في المهرجان الألفي للشاعر المعري . .

فأخذني نجل علامتنا إلى مكتبه ، ودفع إلي الديوان للاطلاع عليه . . . فعكفت على دراسته عكوف الهائم الولهان . فوجدت فيه من الدرر واللآلئ ما يصلح أن أحلي جيد هذه الصحيفة به . فالديوان يحوي قدودا وموشحات وأشعارا غزلية وصوفية كنا هائمين بها ومعجبين بقائلها قبل أن نعرف مصادرها ومواطنها . . وبقدر اطلاعنا على هذا الديوان الفذ ازددنا عجباً وإكباراً لهذا الشاعر . وها أنا ذا إظهارا للحقائق وتمشيا مع السنة التي درجت عليها من إحياء ذكرى الأعلام في ربوعنا في هذه الصحيفة التي فتحت صدرها لمثل هذه البحوث ، وعودتنا على طرق بابها ، دون أن توصده في وجه من يبغي نشر فضائل بني قومه من الأعلام المجهولين . . جئت مقدما شاعرنا المجهول المغمور الحق بهذه المقدمة الموجزة . .

الشيخ أمين الجندي شاعر مطبوع . ولد بمدينة حمص سنة ١١٨٠ ولقد جاء في مقدمة ديوانه ما ننقله بالحرف للواحد بلغة أهل ذلك العصر . .

هو عالم زمانه وشاعر عصره ، الحسيب النسيب ، مداح المختار الحبيب ، الشيخ أمين بن خالد أفا الجندي العباسي . وبعد أن تلقى علومه في حمص على خيرة علمائها توجه إلى دمشق وقرأ على علمائها

« فالبلاشفة يعتبرون نفوسهم حراسا لمصالح الشعوب وحريتها الوطنية واستقلالها وثقافتها المادية (الاقتصادية) والروحية (العقلية) ، ويجاهدون ضد الإنقاص من قدر حرمة هذه الشعوب الوطنية وفنونها » . وقد استشهد على هذا بقول ستالين بأن الشعوب السوفياتية تعتقد بأن لكل أمة ، كبيرة كانت أم صغيرة ، مميزاتها الخاصة والتي لا توجد في أية أمة أخرى ، وأن هذه الميزات التي تتمتع بها كل أمة تزيد في تراث الثقافة العالمية العام وتغنيه . ولهذا فإن جميع الأمم تتساوى من هذا القبيل بعضها ببعض . فكل محاولة والحالة هذه للحط من الكرامة الوطنية لأي شعب من الشعوب ، أو لاستثمار حقوق هذه الشعوب التاريخية ، بما في ذلك ثقافة هذه الشعوب ، يجب شجبه شجبا حاسما كما هو الحال في الاتحاد السوفيتي . ثم يختم كلامه بقوله : « إن لقضايا الميراث الأدبي أهمية حيوية ، فيجب إذن أن لا يفسح المجال لأي سوء تفاهم من هذا القبيل . كما أنه من الضروري أن يفهم أن الرجعيين يستخدمون قضايا كهذه في جميع المناسبات والأمور »

ساكر الربعي